## الفصل الثالث

# دوافع التقديم والتأخير

ليس من شك أن ترتيب الكلام اللفظي الذي يتم بوعي وإدراك إنما هو نتاج الترتيب الذهني فإذا خرج الكلام من الأديب كان لترتيبه أثر ظاهر في الحكم على العمل الأدبي ، ومن هنا كان عناية الأديب بترتيب اللفظ الأدبي ليصل إلى أقصى حد ممكن من التأثير في نفس المتلقي .

وكما يقول الزملكاني : « **التقدم في اللسان تبع للتقدم في الجنان** »[1] فكل تقديم وتأخير في العمل الأدبي إنما يهدف الأديب من ورائه إلى الوصول إلى غايته التي من أجلها أنشأ عمله ، وقد تتجمع عدة دوافع من أجل إخراج الأسلوب على الترتيب الذي أراده صاحبه وما يعنينا هنا في هذا الفصل هي الدوافع المتعلقة بالمعنى الذي أراد الأديب أن يصل إليه ولم أعثر فيما تتبعته من كتب البلاغة والأدب التي تحدثت عن هذا الموضوع إلا على عشرة دوافع حتى أن الزملكاني قد حصر أسباب التقديم في خمسة أنواع ، حيث إن الألفاظ كما يقول تبع للمعاني والمعاني تتقدم باعتبارات خمسة : العلة ، الذات الشرف ، الرتبة ، الزمان »[2] وقد أشار إلى دافع آخر لم أجده عند غيره فيما قرأت هذا الدافع الذي سماه بـ {الخفة} أي تقديم الكلمة وتأخير الأخرى من أجل خفة القراءة وسهولة النطق وكونه أنشط للمتكلم والقارئ ، وقد ضرب على ذلك مثالاً بقولهم : { **ربيعة ومضر** } يقول :

« وإنما قدمت ربيعة مع أن مضر أشرف باصطفاء الله تعالى وجعل النبي ﷺ منها لئلا يفضي إلى كثرة الحركات المتوالية ، فأخرت مضر لتقف عليها بالسكون ، وقد يكون تقديم الجن على الإنس لهذا الغرض ، فالإنس أخف لمكان النون

---

(١) البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن ، ص ٢٩٠ .

(٢) المصدر السابق نفس الصفحة .

والسين المهموسة وكان تقديم الأثقل أولى لنشاط المتكلم في أول كلامه ، ومن ثم لم يوقف إلا على ساكن»[1] وقد وصلت بها إلى تسعة عشر دافعاً هي على هذا النحو :

**١ – تعجيل المسرة :**

مثال : مبروك أنت ناجح ، ومنه قوله تعالى : ﴿ عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ ﴾ (التوبة:٤٣) فلو اختلف الترتيب في الآية فجاءت هكذا لم أذنت لهم عفا الله عنك . لم تحمل نفس المعنى ولا أفهمت هذا المراد من الآية الأولى التي جاءت مصدرة بالعفو لإذهاب أي خوف من قلب رسول الله ﷺ بسبب تصدير الآية بالعتاب ، كما أنها حملت معنى آخر وهو بيان عظيم مكانة هذا النبي عند ربه الذي لم يرد أن يبادره بالعتاب بل بادره بخطاب التلطف مع الأحباب .

وكقول ابن الدمَيْنة :

أبيني : أفي يُمْنَى يديْك جعلتَني ... فأفرحُ ، أمْ صيرَتني في شمالكَ

تَعَالَلتَ كي أشْجَى وما بك علةٌ ... تُريدين قتلي ، قدْ ظفرت بذلك

لئنْ ساءني أنْ نلْتَني بمساءة ... لقدْ سَرَني أني خطَرتُ ببَالك[2]

الشاعر هنا يريد أن يستنطقها بما يحب ويهوى وكأنه يوحي إليها بالجواب فبدأ بمطلوبه مقدماً إياه فقال : «أفي يمنى يديك جعلتني» طلباً للمسرة ومن الممكن أن نسميه أيضاً التقديم للتفاؤل أي تفاؤلاً بما سوف تجيبه .

ونجد في البيت الثاني أيضاً تقديم الجار والمجرور «وما بك علة» وهذا التقديم لنفي العلة عنه دون من سواه فقدمه للاعتناء والاهتمام ، أما البيت الثالث فقد قدم قوله : «لئن ساءني» على قوله : «فقد سرني» طلباً للاستعطاف وإظهار رقة حاله وضعفه أمام ظلم محبوبه عسى أن يكون شفيعاً في إلانة قلبه له .

وكقول أبي الحسن الجياب :

عدوُك مقهورٌ وحزبك غالبٌ ... وأمْرك منصورٌ وسهمُك صائبُ [3]

---

(١) البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن ، ص ٢٩٨ .

(٢) الموجز فى البلاغة والعروض ، ص ٥٦ ودلائل الإعجاز ص ٩٠ .

(٣) الإحاطة فى أخبار غرناطة ص ٥٦٢ .

بدأ بذكر هلاك عدوه لما فيه من عظيم البشارة والمسرة بالانتصار وهلكة العدو معاً وهذا لا يتحقق لو أخر ، فقال : حزبك غالب ، فقد يغلب حزبه ولكن مع بقاء عدوه وعدم قهره ، فلا يكتمل الفرح .

**٢- تعجيل المساءة أو التشاؤم :**

ومنه قوله تعالى : ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ﴾ (البقرة:٧٩).

إن تقديم كلمة «ويل» هنا أشاعت جواً نفسياً مملوءاً بالخوف المرتقب والتشاؤم من العذاب المنتظر الذي مهدت له وأوحت به كلمة «ويل» والتي كان بسبب تقدمها مصاحبة هذا الشعور التشاؤمي لنفس من هذه حالته من أول الآية وحتى آخرها فلا يزال الكتبة الكذبة مرهوبين من بداية الآية على عكس ما لو أخرت فقيل : فللذين يكتبون الكتاب بأيديهم ويل .

ومنه قول المتنبي :

**ومن نكد الدنيا على الحرِّ أنْ يَرى عدواً له ما مـنْ صـداقته بُـدُّ**[1]

في هذا البيت نجد أن التقديم هنا صلح أن يجيء لعلتين الأولى منهما هي التشاؤم الذي أوجدته كلمة «نكد» إن البداءة بهذه الكلمة كفيل بأن يخلق جواً تشاؤمياً مصاحباً للقارئ وملقياً بظلاله عليه وكأنه يعكس حالة الشؤم الواقعي عندما يفاجأ الإنسان في بداية أمره بما يتشاءم به ، فيظل متشائماً حزيناً بما بدئ به ، إن هذه الصورة الواقعية المشاهدة بالبصر والمصاحبة للنفس والفكر هي بنفسها تلك الصورة الذهنية التي ابتدأ المتنبي بها بيته هذا لتبقى أثراً معنوياً سيئاً في نفس القارئ لا يتفلت من أسره حتى ينتهي من قراءة القصيدة .

ومنه قول أبي تمام :

**يومَ الفراق لقدْ خُلقْتَ عظيمـا وَتركتَ جسمي لا سقمْتُ سـقيما**[2]

---

(١) العرف الطيب شرح ديوان المتنبي ، الجزء الأول ص ٣٨٣ من قصيدة يمدح فيها على ابن محمد بن سيار بن مكرم التميمي .

(٢) ديوان أبي تمام ص ٤٢٤ .

قدّم أبو تمام هنا «يوم الفراق» مع أن أصله التأخير ، فالترتيب هو لقد خلقت عظيماً يا يوم الفراق ، ولكن لما كان هذا اليوم بما يحمله من مشاعر الحزن والأسى والحرمان من الأحبة هو السبب لكل معاناة الشاعر النفسية والجسمانية ، قدمه في الذكر لما ترك في قلبه من حسرات ولوعات لا زالت تسبح في خيالاته وتستقر في وجدانه وتتقلب عليه سائر أوقاته حتى صار ذلك اليوم علامة شؤم وهم.

وكمثال البيت السابق قول الشاعر حبيب :

**يومَ الفراق لقد خلقت طويلا  لم تبق لي جلداً ولا معقولا**[1]

ومنه قول ابن زيدون :

**أضحى التنائي بدلاً منْ تدانينا  ونابَ عنْ طيب لُقيانا تجافينا**

**حالتْ لفُقدكُم أيامُنا فغدتْ  سوداً وكانتْ بكم بيضاً لياليناً**[2]

وننظر هنا أيضاً في أبيات ابن زيدون ، وكيف قدم كلمة «التنائي» لأنها هي التي آلمته ثم قدّم كلمة «سود» مع أنها في زمن الحدوث حاصلة بعد البياض ، مع أن الأصل في الترتيب أن يقول : وكانت بكم بيضاً لياليناً فغدت سوداً ، ولكنه قدَّمها تشاؤماً وأسى .

وكقول ابن سهل الأندلسي :

**هو البينُ يا موسى ولو كنتَ ثاويا  فما كان قربُ الدار منكَ مُقرِّبي**[3]

ونزعة التشاؤم هنا طالّة وواضحة تكاد تصرخ في أذن المتلقي حاملة كل معاني التشاؤم والخوف وانتظار الجفاء من المحب ولهذا بدأ بذكره فقال : «هو البين» .

ومنه قول شوقي :

**فَجَعَ المكارمَ فاجعُ في ربها  والمجدَ في بانيه والعلياءَ**[4]

---

(١) بهجة المجالس وأنس المجالس ، مجلد ١ ص ٦٨ .

(٢) الموجز ص ٢٥ – ديوان ابن زيدون ، ص ٢٩٨ من قصيدة أرسلها لولادة بنت المستكفى .

(٣) الشوقيات ، الجزء الثانى ، ص٣ من قصيدة قالها فى سليمان باشا أباظة .

(٤) ديوان ابن سهل الأندلسى ، ص ١٧ .

لقد أحسن شوقي هنا في اختيار الكلمة المعبرة عن الحزن مبتدئاً بها ، لتشعرالقارئ بصدمة لفظية ، تحمل معها تيارات من سيئ الأخبار التي نزلت على المستمع كنزول المصيبة على صاحبها فجأة بدون حساب .

**٣- التشويق للمتأخر :**

ومنه قوله تعالى : ﴿ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ۚ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ (الحج:٧٢) ليس من شك أن تأخير ذكر النار في الآية الكريمة شغل العقل والفكر في مسرح من التوقعات الذهنية لما يُبَشر به من هذا حاله ، وليكون ذلك أدعى لاستقرار المعنى وثبوته أيضاً .

ومنه قول المعري :

**والـذي حـارتْ البريـةُ فيـه حيوانٌ مُستحَدثٌ مـن جمـاد** [١]

يقصد بالحيوان الإنسان ، والجماد هو النطفة التي خلق منها ، وحيرة البرية فيه هو الاختلاف في إعادته للحشر قدم المسند إليه ـ الذي ـ يعني الإنسان للتشويق إلى المتأخر .

وكقول المعري :

**تعبٌ كُلُها الحيـاةُ فمـا أعجَـبُ إلا مـنْ راغـب في ازديـاد**[٢]

أراد المعري أن يقول : إن الحياة تعب كلها ، فلم يلجأ إلى هذا الأسلوب ، وإنما يريد أن يثير انتباهك ، ويصدمك ، فيقدم الخبر ـ المسند على المسند إليه ـ المبتدأ ـ

وكقول الأقيشر :

**وإنْ تَجْمَع الآفات فالبخلُ شـرُّها وشرٌّ منَ البُخلِ المواعيدُ والمُطـلُ**[٣]

الشاعر في البيت السابق أراد أن يقول : إن خلف الوعد والمماطلة في أداء الحقوق شر من البخل ، ولكنه أتى بهذا الأسلوب الذي يحمل نفس المعنى ،

---

(١) ديوان سقط الزند لأبى العلاء المعرى ص ٢٠ .

(٢) المصدر السابق القصيدة السابقة ص ١٩٧ .

(٣) ديوان الأقيشر الأسدى ، ص ٦٣ .

ولكن عن طريق التشويق إلى معرفة ما هو شر من البخل ، حيث قدم الخبر ـ وشر من البخل ـ حتى يتشوق السامع إلى هذا الشيء الذي هو شر من البخل مما أعطى الأسلوب جمالاً وللمعنى قيمة .

وكقول المتنبي :

**على قَدْرِ أهلِ العزمِ تأتي العزائمُ وتأتي على قدر الكرام المكارمُ** [1]

أصل الترتيب في الأسلوب السابق « تأتي العزائم على قدر أهل العزم» ، وتأتي المكارم على قدر الكرام .

فخالف المتنبي الترتيب الطبيعي ، فقدم المجرور والمضاف إليه ، ليتشوق السامع إلى معرفة المتعلق الذهني الذي أخره المتنبي ، وكذلك الحال في الشطر الثاني من البيت .

وكقول المتنبي :

**تُدبرُ شرقَ الأرض والغرب كفُّهُ وليس لها يوماً عن المجد شاغلُ** [2]

وكذلك في تقديمه للمفعول به شرق الأرض مع المعطوف وتأخير الفاعل عنه ليتشوق المتلقي لمعرفته .

وكقول شوقي مادحاً النبي ﷺ :

**بكُلّ قول كريم أنت قائلُه تُحيي القلوبَ وتُحيي ميِّتَ الهمم** [3]

قدم شوقي الشطر الأول الذي من حقه التأخير على الشطر الثاني الذي من حقه التقديم ليتشوق المتلقي لمعرفة الأثر الناتج من القول الكريم الذي يقوله الرسول ﷺ وكقول الشاعر :

**خيرُ الصنائعِ في الأنامِ صنيعةٌ تنبو بحامِلِها عن الإذلالِ .** [4]

الشاعر في البيت السابق لم يخالف الترتيب النحوي ، وإنما خالف الترتيب الذهني للتشويق والاستثارة ، فبدأ بقوله خير الصنائع في الأنام ، حتى يثير الشوق

---

(١) العرف الطيب الجزء الثانى ص ٢٠ .

(٢) العرف الطيب ، الجزء الثانى ص ١٩٢ من قصيدة يمدح بها سيف الدولة الحمدانى .

(٣) الجواهر ص ١١٣ .

(٤) تاريخ الأدب عمر فروخ ، الجزء الثانى ص ٣٣ .

عند المتلقي لمعرفة هذه الصنعة ، وعلى نفس الحال جرت أساليب الشعراء في الأبيات التالية :

منها قول العباس بن الأحنف :

**يدلُّ على ما بالمحبِ مـنَ الهـوى  تقلُّبُ عينيه إلى شخصِ مَنْ يهوى**[1]

هنا أيضاً قدم الشاعر الجار والمجرور على الفاعل ، ليتشوق المتلقي لمعرفة ما هي العلامة التي تدل على المحب ، الذي جاء به في البيت التالي وهو قوله : تقلب عينيه .

ومن ذلك قوله أيضاً :

**أنحلَ جسـمي وبَـرَى أعظُمـي  لذعُ حرارات فـراق الحبيـب**[2]

قدم المفعول الذي من شأنه التأخير ، وهو قوله جسمي ، وأخر الفاعل ـ لذع حرارات الحبيب ـ لكي يحدث لنا التشويق لمعرفة سبب ما اعتراه .

وكقوله :

**وإني لقاسي القلب إنْ كنتُ صابراً  وحبي غداً فيمن يسـيرُ يسـير**[3]

وكثيراً ما يستخدم الأدباء أسلوب التقديم والتأخير لأجل هذه الغاية ، وخاصة في مجال القصة والمسرحية ، بل نراهم نقلوا التقديم والتأخير من العبارة إلى الموضوع بصفة عامة ، فالكاتب يقدم ويؤخر في عرض الأحداث والشخصيات اجتذاباً لانتباه القارئ وتشويقاً له لمتابعة الأحداث ، وإحكاماً لبناء القصة أو المسرحية .

**٤ – التلذذ :**

نحو : ليلى وصلت .

ومنه قول عمرو بن كلثوم :

**وكـأسٍ قـدْ شـربتُ ببَعْلَبَـكَ  وأخـرى في دمَشْـق وقَاصَـرينا**

---

(١) ديوان الأحنف عباس ص ٢١ .

(٢) المصدر السابق ص ٣٥ .

(٣) المصدر السابق ص ١٤٢ .

إذا صَـــمَدتْ حمياهـــا أريبـــاً  من الفتيان خلْـــتَ بـــه جُنونـــا[1]

قدم عمرو بن كلثوم كلمة « كأس » ، مع أنها مفعول به في المعنى للفعل المتأخر شرب فيكون الترتيب المنطقي قد شربت كأساً ببعلبك ، ولكنه أراد أن يضفي أو يشعر من حوله بهذه اللذة المسيطرة عليه من جراء تلك الكأس ، فقدمها في الذكر تلذذاً بذكرها .

**٥- التبرك :**

اسم الله اهتديت به ، وسوف يأتي الحديث عن ذلك باستفاضة في تفسير سورة الفاتحة عند قوله تعالى : بسم الله الرحمن الرحيم .

**٦- النص على عموم السلب أو سلب العموم :**

فعموم السلب يكون بتقديم أداة العموم ، ككل وجميع على أداة النفي نحو : كل ظالم لا يفلح ، المعنى : لا يفلح أحد من الظلمة ، ونحو : كل ذلك لم يكن ، أي لم يقع هذا ولا ذاك ويسمى ـ شمول النفي ـ و ـ عموم السلب ـ يكون النفي فيه لكل فرد ، وسلب العموم يكون بتقديم أداة النفي على أداة العموم ، نحو : لم يكن ذلك ، أي لم يقع المجموع فيحتمل ثبوت البعض ، ويحتمل نفي كل فرد لأن النفي يوجه إلى الشمول خاصة دون أصل الفعل ، ويسمى ـ نفي الشمول ـ و ـ سلب العموم ـ يكون النفي فيه للمجموع غالباً .

كقول المتنبي :

**ما كلُّ رأيِ الفتى يدعو إلى رَشَدِ**

وقد جاء عموم النفي قليلاً ، كقوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ (لقمان:١٨)

**٧- إفادة التخصيص قطعاً إذا كان المسند إليه مسبوقاً بنفي والمسند فعلاً:**

نحو : ما أنا قلت هذا ، أي لم أقله ، وهو مقول لغيري ، وإذا لم يسبق المسند إليه نفي كان تقديمه محتملاً لتخصيص الحكم به أو تقويته ، إذا كان المسند فعلاً ، نحو : أنت لا تبخل ، هو لا يهب الألوف ، إسناد الفعل إلى ضمير المخاطب في المثال الأول وإسناد الجملة إلى ضمير الغائب في المثال الثاني .

---

(١) ديوان عمرو بن كلثوم ، ص ٦٦ .

ومنه قول الشاعر :

بكَ اقتدتْ الأيـامُ في حسـناتها ولولاكَ شيمتُه هـم وتكريـبُ[1]

ومع إفادة التخصيص في البيت السابق نجد فيه فائدة أخرى وهو التعظيم والاحترام بالبداءة بذكر ضمير المخاطب المعبر عنه .

ومنه قول ابن سهل الأندلسي :

عليك فطمتُ العينَ عن لذة الكرى وأخرجتُ قلبي طيبَ النفس عنْ يدي[2]

قدم الجار والمجرور لتخصيصها دون من سواها بسبب حرمان عينيه من النوم وهذا التخصيص المستفاد بالتقديم للجار والمجرور ، أفاد استعطافاً لحبيبه ووسيلة لحصول غايته بالقرب منه والظفر بقلبه .

أقول : وما يذكره بعض البلاغيين ضمن أسباب التقديم [ **التنبيه من أول الأمر على أنه خبر لا نعت**] فهذا القول منهم صحيح ومعقول ، لو كان مذكوراً في موضعه ، أقصد في باب من أبواب النحو ، أما لغة الشعر والأدب فلا يستقيم معها ذلك ، لأن الشاعر أو الأديب أياً كان نوع قوله إنما يدفع معناه قولَه ولفظَه ، فالمعنى هو الذي يرتب الكلمات في مواضعها التي سيقت من أجل بيانه ، وليس من أجل التنبيه على كونه خبراً أو مفعولاً أو حالاً ، ثم إنني أقول : سلمنا بأن الشاعر والأديب إنما قدم الكلمة للتنبيه على أنها خبر وليس صفة ، ماذا أفاد ذلك في معرفة سبب التقديم ، وما الفائدة من تقديم الخبر؟ هل هو من أجل التنبيه على كونه خبراً كما مثل الدكتور عبد الفتاح لاشين ببيت حسان ﷺ والذي يمدح فيه النبي ﷺ بقوله :

لـهُ همـمٌ لا مُنتـهى لكبارهـا وهمتُه الصغرى أجلُّ مـن الـدهرِ

له راحةٌ لو أنّ معشـارَ جودِهـا على البرِّ كان البرُّ أندى من البحرِ

يقول الدكتور عبد الفتاح : « فلو قال الشاعر : [**همم له**] أو [**راحة له**] لتوهم ـ ابتداء ـ أن لفظ « له » في كلا البيتين نعت وأن الخبر سيذكر فيما بعد ، وذلك لأن حاجة النكرة إلى النعت أشد من حاجتها إلى الخبر »[3]

---

(١) الموجز ص ٥٣ .

(٢) ديوان ابن سهل الأندلسى ، ص ١٧ .

(٣) المعانى فى ضوء أساليب القرآن ، ص ١٦٨ .

وهل التقديم للاهتمام ؟ أم هو للاختصاص وهو ما نراه ، أم لم يفد التقديم شيئاً فالتقديم والتأخير فيه سواء .

وأقول : إن التقديم هنا في قول حسان ﷺ إنما هو للاختصاص ، فهو يمدح النبي ﷺ ومن ذا الذي يدانيه في صفاته أو يشاركه فيها ؟ فالشاعر هنا أراد أن يمدح النبي ﷺ بصفاته التي فاق غيره فيها ، ومنها هممه العالية ، وجوده وعطاؤه المنقطع النظير ، ولهذا قدمه قوله : [له] في كلا البيتين .

وأقول : ليت البلاغيين ذكروا تحت العنوان [ **التنبيه من أول الأمر على أنه خبر لا نعت**] قول حسان ﷺ في وصف خيل أصحاب النبي ﷺ

**لـــه خيـــل مُجنَّبـــةٌ تعَـــادَى بفرســـانٍ عليهـــا كالصـــقورِ** [1]

فتقديم الخبر هنا ما أفاد معنى زائداً .

## ٨- للإنكار والغرابة :

كقول الشاعر :

**أَبَعدَ مشيب مُنقض في الـذوائب تحاولُ وصلَ الغانيات الكواعب**[2]

الشاعر في هذا البيت لم ينكر أو يستغرب التقرب والتحبب للجميلات ، وإنما أنكر واستغرب ذلك لمن كان حاله الشيب ، ولهذا قدم كلمة المشيب التي أفادت شدة الإنكار والاستغراب منه لمن أراد وصلهن .

وكما قال عمرو بن كلثوم :

**معـاذَ الإلـه أن تنـوحَ نسـاؤنا على هالك أو نضجَّ من القتـل**[3]

والشاهد في هذا البيت تقديم كلمة معاذ الله التي أفادت إنكار النواح من النساء والضج من الرجال .

ومنه قول الأقيشر الأسدي :

**تعفَفتُ عنها في العصور التي خلت فكيف التصابي بعدما كلأَ العُمْرُ**[4]

---

(١) ديوان حسان بن ثابت ص ١٣٤ .

(٢) لم أعثر له على قائل .

(٣) ديوان عمرو بن كلثوم ص ٥٤ .

(٤) ديوان الأقيشر ص ٣٨ وذكر الشارح أن البيت المنسوب أيضاً إلى ابن خزيم فى معجم البلدان ١٤٠/٢ ، وكذلك فى أمالى القالى ٧٧/١ وينسب إلى الأسدى فى ملائكة المعرى مع اختلاف فى الرواية تجاللت بدلاً من تعففت مضت بدلاً من خلت كمل بدلاً من كلأ .

وفي هذا البيت أفاد تقديم اسم الاستفهام على الجملة الفعلية الإنكار على المتصابي بعدما تقدم عمره .

ومنه قول العباس بن الأحنف :

ألقـــولِ واشٍ ظـــالمٍ أقصـــيْتَني نفسي فداؤك أمْ لذنبٍ واحـــدِ[1]

تقدم قول الشاعر هنا : ألقول واشٍ ، مع أن الذي أهم الشاعر هنا الإقصاء ، إلى أنه أبدى غرابته ودهشته أن يكون الإقصاء لسبب تافه غير ذي بال ، لقد استنكر الشاعر هنا بهذا التقديم ضعف الحب وهشاشته حتى أنه يسقط عند كلمة حاسد نمّام ومزوّر .

ومنه قول الشاعر :

أكـــلُ امـــرئٍ تحســـبين امـــرأً ونـــارٍ توقَّـــدُ بالليـــل نـــارا[2]

ينكر عليها أن تسوي بين الناس دون مراعاة لاختلاف صفاتهم وطبائعهم ، فلا تفرق بين كامل وناقص ، وأن ترى كل نار توقد نار كريم سمح جواد .

ومنه قول أبي العلاء المعري :

أعندي وقد مارستُ كُلَّ خفيَّة يُصَدَّقُ واشٍ أو يخيَّبُ ســـائلُ [3]

أصل الترتيب في بيت أبي العلاء « أيصدق واش أو يخيب سائل عندي» ، ولكنّ أبا العلاء هنا ما أراد أن ينكر إمكانية تصديق الواشي أو تخييب السائل ، وإنما أنكر أن يكون هو هذا الشخص الذي يصدق الواشي أو يخيب السائل ، فكأنه يقول : نعم غيري يفعل ذلك أما أنا فلا ، ولذا بدأ بقوله : « عندي» لكي يكون مصب الإنكار في شخصه هو .

---

(١) عباس الأحنف ، ديوانه الشعرى ، ص ١٠٥ .

(٢) أسرار التقديم والتأخير فى لغة القرآن الكريم محمود السيد شيخون ، ص ٧٥ ، الكامل فى اللغة والأدب ج١ ص٢٣٨ وذكر المبرد أن سيبويه أنشده لعدى بن زيد العبادى وصحح المبرد نسبته لأبى دُواد الإيادى .

(٣) ديوان سقط الزند لأبى العلاء المعرى ، ص ١٠٦ القصيدة السادسة عشرة بعنوان ألا فى سبيل المجد .

ومن هذا القبيل تعجب عروة بن الورد من قيس الذي تمنى غربته فبدأ بها لأنها موقف الاستغراب في هذا البيت التالي :

**تمنّى غربتي قيسٌ وإني لأخشى إنْ طحا بك ما تقولُ**[1]

حيث قدم المفعول به [ **غربتي** ] على فاعله [ **قيس** ] لبيان الاستغراب من هذه الأمنية .

**٩- الترقي :**

ومن ذلك ما ذكره ابن قتيبة في كتابه طبقات الشعراء قال : سمعت بعض أهل الأدب يذكر أن مقصد القصيد إنما ابتدأ فيها بذكر الديار والدمن ـ آثار الناس ـ .

والآثار ، فبكى وشكى وخاطب الربع ، واستوقف الرفيق ، ليجعل ذلك سبباً لذكر أهلها الظاعنين . . . . ثم وصل ذلك بالنسيب ، فشكا شدة الوجد وألم الفراق وفرط الصبابة والشوق ، ليميل نحوه القلوب ، ويصرف إليه الوجوه ، ويستدعي به إصغاء الأسماع إليه ، لأن التشبيب قريب من النفوس ، لائط ـ عالق ومحبب ـ بالقلوب لما قد جعل الله في قلوب العباد من محبة الغزل وإلف النساء ، فليس يكاد أحد يخلو أن يكون متعلقاً منه بسبب ، وضارباً فيه بسهم حلال أو حرام ، فإذا علم أنه استوثق من الإصغاء إليه والاستماع له ، عقب بإيجاب الحقوق ، فرحل في شعره ، وشكا النصب والسهر وسرى ـ سيره ـ الليل وحر الهجير وإنضاء ـ هزال ـ الراحلة والبعير فإذا علم أنه قد أوجب على صاحبه حق الرجاء وذمامة التأميل ، وقرر عندهما نازله من المكاره في المسير ، بدأ في المديح ، فحثه على المكافأة ، وهزه للسماح وفضله على الأشباه وصغر في قدره الجزيل .[2]

**١٠- مراعاة الترتيب الوجودي :**

كقوله تعالى : ﴿ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ﴾ (البقرة:٢٥٥).

ومنه قول الأعشى الكبير ـ ميمون بن قيس ـ

**بانتْ سعاد ، وأمسى حبلها رابا وأحدثَ النأيُ لي شوقاً وأنصابا**[3]

---

(١) ديوان عروة بن الورد ص ٩٥ .

(٢) الشعر والشعراء ص ٢٧ .

(٣) ديوان الأعشى .

نستطيع القول : أن هذا البيت أتى فيه التقديم لعلتين ، العلة الأولى : الاهتمام حيث إن شوقه لحبيبته أهم من النصب والأوجاع ، العلة الثانية : هي علة التقديم الوجودي للشوق على الأنصاب ، لأنه سابق عليه متقدم وجوداً فما النصب إلا أثر من آثار هذا الحب .

حبلها رابا ضعيفاً ، لا يعتمد عليه ، فقدم الشوق لأنه سبب النصب .

وكقوله أيضاً :

**منْ ديارِ الهضبِ هضبِ القَليـــبِ  فاضَ ماءُ الشؤونِ فيضَ الغُـــروبِ**

**أخلَفَـــتْني بـــه قُتَيْلَـــةُ ميعـــادي  وكانتْ للوعدِ غـــيرِ كـــذوبِ**[1]

الذي أهم الشاعر في البيت السابق هو خلف وعد حبيبته له ، ولكننا نراه قدم ذكر المكان على خلف الوعد وما ذاك إلا لأنه مكان تولد الحب ووجوده ، فلذلك قال من ديار الهضب هضب القليب ، فاض ماء الشؤون أي ماء الحب .

ومنه قول الأُقَيْشَر :

**سأشرُبُـــها ما دمتُ حياً وإن أ مُتْ  ففي النفسِ منها زفرةٌ وشـــهيقُ**[2]

قدم الشاعر الزفرة على الشهيق ، فهي أول ما يخرج من صدر المتحسر النادم على شيء فتراه يزفر أولاً حسرة وندماً ثم يأخذ الشهيق بعد ذلك .

ومنه قول كثير عزة :

**وراجعتُ نفسي واعترتني صبابةُ  وفاضتْ دموعي عبرةً خشيَةَ النوى**[3]

وفي البيت السابق نجد الترتيب واضحاً جليا ومقصودا على حسب الحالة النفسية التي تدرجت بالشاعر من وجود التذكر بقوله ـ وراجعت نفسي ـ ثم حدوث الصبابة وشدة العشق ففاضت دموعه لذلك .

ومنه قول العباس بن الأحنف :

**عاصٍ مســـيءٌ مـــذنبٌ مُتعتِّـــبٌ  أخفى هواه وأظهـــرَ الغضـــبَ** [4]

---

(١) ديوان العشى ص ١٩ .

(٢) ديوان الأقيشر ص ٣٦ .

(٣) ديوان كثير عزة ، ص ٢٩ .

(٤) العباس ديوانه ص ٣٥.

وكالبيت السابق تدرج العباس في عتاب حبيبه الذي عصى هواه ، فأساءه فصار مذنباً ، ومن هنا جاء التدرج في الوصف « عاص مسيء مذنب» .

**١١- الاحتقار :**

ومنه قول الأقيشر :

**فقـــالوا لعكرمـــةَ المخزيـــات وماذا يرى النـــاسُ في عكرمـــة** [١]

قدم اسم عكرمة للإهانة والاحتقار ، وقد تكون للاختصاص أيضاً لشهرته بـها ، فكأنـها له وحده .

ومنه قول عمرو بن كلثوم :

**ردَدَتُ على عمرو بنِ قيسِ قلادةً ثمانين سُوداً من ذُرى جبلِ الهْضب**[٢]

أصل الترتيب في البيت السابق ، رددت قلادة على عمرو بـن قـيس ، بـدأ بـذكره تحقيراً له وتخصيصاً له برفضها منه وعدم قبولها منه على وجه التعـيين احتقـاراً لـه لا لها ولو كان الاحتقار مقصوداً به القلادة لبدأ بذكرها أولاً .

**١٢- الافتخار :**

ومنه قول عمرو بن كلثوم :

**بـــرأسٍ مـــن جُشَـــمِ بـــنِ بكـــرٍ ندقُ به الســـهولةَ والحـــُزونا**[٣]

قدم الشاعر قوله « برأس» ، والمقصود به حيه مع أنـه في المعنـى فاعـل نـدق ، فأصل الترتيب « ندق برأس من جشم بن بكر السهولة والحزونة» ، فقـدم قومه في الذكر افتخاراً بـهم .

ومنه قول الأقيشر :

**حضـــرموتُ فتشـــتْ أحســـابَنا وإلينـــا حضـــرموتُ تنتســـبْ**

**إخـــوةُ القـــرد وهـــمْ أعمامُـــهُ برئـــتْ مـــنكم إلى الله العـــربْ**[٤]

---

(١) الأقيشر ص ٧٤ .

(٢) ديوان عمرو بن كلثوم ، ص ٢٦ .

(٣) ديوان عمرو بن كلثوم ص ٥٦ .

(٤) ديوان الأقيشر ص ٢٢ .

وكذلك تقديم حرف الجار مع الضمير في كلمة إلينا على حضرموت للافتخار بقومه والاعتزاز بهم .

## ١٣- الترحم أو التشكي :

ومنه قول الشاعر :

أفي الحق أن يُعْطَى ثلاثون شـــاعراً ويُحْرَمَ ما دونَ الرضا شاعرٌ مثلي[١]

الشاعر يشتكي الظلم ولهذا بدأ بذكر كلمة أفي الحق لتأكيد قضية ظلمه لرفعها عنه .

ومنه قول الأقيشر :

إما تراني قـــدْ هلكـــتُ فإنـــــما رمضانُ أهلكني ودينُ أُسَـــيْد[٢]

قدم الأقيشر رمضان ، وهو رتبته التأخير فهو فاعل «أهلكني» إذ إنه يشتكي منه بسبب منعه إياه الخمر فلا يستطيع أن يشربها وهو صائم .

## ١٤- مراعاة الترتيب : ـ الطي والنشر ـ

وهو ذكر متعدد على التفصيل أو الإجمال ثم ذكر لكل واحد من غير تعيين ثقة بأن السامع يرده إليه لعلمه بذلك بالقرائن اللفظية أو المعنوية[٣]

واللف والنشر كما يفهم من التعريف السابق قسمان :

**الأول** : ذكر المتعدد على التفصيل ، وهو ضربان :

**أحدهما** : أن يكون النشر على ترتيب اللف ، بأن يكون الأول من المتعدد في اللف والثاني للثاني وهكذا إلى الآخر ، وهذا الضرب هو الأكثر في اللف ، والنشر ، والأشهر ، ومن شواهد هذا الضرب بين اثنين قوله تعالى : ﴿ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ (القصص:٧٣).

---

(١) الموجز ص ١٢٢ ولم ينسبه إلى قائل أو مصدر .

(٢) ديوان الأقيشر ص ٣٢ .

(٣) عتيق عبد العزيز الموجز ، دار النهضة العربية ، بيروت ص ١٧ .

فالسكون راجع إلى الليل ، والابتغاء من فضل الله راجع إلى النهار ، ومن هذا قول الشاعر :

ألستَ أنتَ الذي منْ وِرْدِ نعمتِه ... وورد راحتهِ أجني وأغترِفُ[1]

ومنه قول عمرو بن كلثوم :

فصالوا صولةً فيمن يليهم ... وصُلْنا صولةً فيمن يلينا

فآبوا بالنهاب وبالسبايا ... وأُبنا بالملوك مُصَفدين[2]

جاء الشاعر هنا بالنشر المرتب على اللف المذكور في البيت حيث قدّم ذكرهم في صولتهم وإيابهم ثم ثنى بقومه بعد في كلا الأمرين .

ومنه قول ابن حيُوس :

من كان رأيُك رمحَه ومجنَّهُ ... لَمْ يلقْ ريبَ الدهرِ أعزلَ أكشفا[3]

فأعزل راجعة إلى الرمح ، وأكشف راجعة إلى المجنّ .

ومن شواهد ذكر المتعدد على التفصيل والترتيب بين ثلاثة وثلاثة قول ابن الرومي :

آراؤكم ووجُوهُكم وسيوفُكم ... في الحادثات إذا دَجَون نجومُ

فيها معالمُ للهدى ومصابحُ ... تجلو الدجى والأخرياتُ رُجوم[4]

رجوم هنا بمعنى منايا . فالمعالم للآراء والمصابح للوجوه والرجوم للسيوف .

ومثله قول حَمدة ويقال حمدونة الأندلسية :

ولما أبى الواشون إلا فراقَنا ... وما لهُم عندي وعندكَ منْ ثار

وشنوا على أسماعنا كلَّ غارة ... وقلَ حُماتي عند ذاكَ وأنصاري

غزوناهُم منْ ناظرَيكَ وأدمُعي ... وأنفاسنا بالسيف والسيل والنار[5]

السيف في البيت السابق للنظر والسيل للدموع والنار للأنفاس .

---

(١) علم البديع ص ١٧٦ ، ولم ينسبه إلى مصدر أو قائل .

(٢) ديوان عمرو بن كلثوم ص ٥٦ .

(٣) ديوان ابن حيوس ص ٣٨٤ .

(٤) ديوان ابن الرومى ، ص ١٣٩ ، من قصيدة قالها فى آل طاهر .

(٥) نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب تأليف الجزء السادس ص٦٢ .

ومن شواهد ذكر المتعدد على التفصيل والترتيب بين أربعة وأربعة قول الشاب الظريف شمس الدين بن العفيف :

**رأى جسدي والدمعَ والقلبَ والحشا فأضنى وأفنى واستمال وتيَّما**[1]

في البيت السابق جاء هذا الترتيب بين الأفعال على الترتيب المذكور في الشطر الأول أضنى جسده ، وأفنى دمعه ، واستمال قلبه ، وتيم حشاه .

**والضرب الثاني**: من اللف والنشر المفصل هو ما يجيء على غير ترتيب اللف .

ومن هذا الضرب ما يكون معكوس الترتيب كقول ابن حيوس :

**كيف أسلو وأنت حِقفٌ وغصنٌ وغزالٌ لحظاً وقداً ورِدفا**[2]

اللحظ للغزال ، والقد للغصن ، والردف للحقف ، والحقف الرمل العظيم المستدير يشبه به الردف في العظم والاستدارة .

**١٥- صحة المقابلات ، وهو يفيد إبراز المعنى وجمال الصورة :**

وهذا القسم يتعلق بترتيب الكلام فإذا أتى بأشياء في صدر الكلام أتى بضدها في عجزه على نفس الترتيب في الصدر بحيث تقابل كل كلمة مضادها فيقابل الأول بالأول والثاني بالثاني في المخالف ـ المقبلات ـ أو في الموافق ـ الطي والنشر ـ ومتى أخل الترتيب كان الكلام فاسد المقابلة وقد تكون المقابلة بغير الأضداد .

قال ابن أبي الأصبع : « ومن أمثلة صحة المقابلات قول النبي ﷺ : ما كان الرفق في شيء إلا زانه ولا الخرق في شيء إلا شانه» قال المحقق : وروايته فيه ـ أي الجامع الصغير ـ ولا نزع من شيء إلا شانه»

وأقول : وعلى كلتا الروايتين المقابلة صحيحة ، ففي الأولى بين الرفق والخرق وبين زان وشان ، والثانية بين كان ونزع وبين زان وشان ، على أنه توجد رواية أخرى بلفظ «ما كان الفحش في شيء قط إلا شانه ولا كان الحياء في شيء قط إلازانه» والمقابلة هنا واضحة بين الفحش والحياء وبين شانه وزانه»[3]

---

(١) ديوان شمس الدين بن العفيف التلمساني ، ص ٣١٢ .

(٢) نفح الطيب الجزء السادس ص ٦٢ ولم أعثر على البيت فى ديوانه الشعرى .

(٣) صحيح الجامع الصغير ، المجلد الثانى ص ٩٨٧ حديث رقم ٥٦٥٤ ، ٥٦٥٥ .

ومن أمثلة الشواهد الشعرية ما ذكره ابن أبي الأصبع من قول قدامة الشاعر :

**فوا عجبا كيف اتفقنا فناصحٌ وفيٌ ومطويٌّ على الغل غادرُ**

لما قدم الشاعر ذكر النصح والوفاء في صدر البيت قابلهما بذكر الغل والغدر في عجزه على الترتيب لأن الغل ضد النصح والغدر ضد الوفاء .

وفيما ينسب لأبي دلامة :

**ما أحسن الدينَ والدنيا إذا اجتمعا وأقبحَ الكفرَ والإفلاسَ بالرجلِ**

ومن قول المتنبي :

**أزورهم وسوادُ الليل يشفعُ لي وأنثني وبياضُ الصبح يغري بي**[1]

قال ابن أبي الأصبع : « جمع بين عشر مقابلات ، قابل أزور بأنثني وسواداً ببياض والليل بالصبح ويشفع بيغري ولفظة بي على الترتيب »[2]

**١٦- العناية والاهتمام :**

ومنه قول الزِركْلي :

**العينُ بعدَ فراقها الوطنا لا ساكناً ألفتْ ولا سَكنا**[3]

قدم ما هو أولى بالاهتمام ، وهو قوله ساكناً على سكن ، وأذكر من ذلك المثل العامي المصري خذ الجار قبل الدار ، والرفيق قبل الطريق ، ولعل الشاعر كان متأثراً في ذلك بالقرآن حكاية عن قول امرأة فرعون : ﴿ **رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ** ﴾ (التحريم:١١) قدمت الجوار وهي كلمة عندك على السكن وهي كلمة بيتا .

ومنه قول الأقيشر الأسدي :

**خلعوا أمير المؤمنين وبايعوا مَطراً لعَمْرُك بيعةٌ لا تَظهرُ**[4]

قدّم الشاعر ما أهمه هنا وهو خلع أمير المؤمنين ، فلهذا قدمه على بيعة مطر .

---

(١) العرف الطيب فى شرح ديوان أبى الطيب ، من قصيدة يمدح فيها كافور ، الجزء الثانى ص٣٠٧ .

(٢) تحرير التحبير فى صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن ص ١٧٨-١٨٤ .

(٣) ديوان الزركلى قصيدة بعنوان نجوى ص ٨ .

(٤) الأقيشر ص ٣٩ .

## ١٧- السخرية والتهكم :

ومنه قول أبي تمام :

صَدِّقْ مقالَتَـهُ إنْ قـال مجتهـداً ... لا والرغيف فذاك البرُّ منْ قَسَـمه

وإنْ هممتَ بـه فافْتـكْ بخبزتـه ... فإنـها قطعةٌ منْ لحمـه ودمـه[1]

لا يكون التصديق إلا بعد القول هذا هو الترتيب الطبيعي ، ولكن الشاعر هنا بدأ به قبل فقال : صدّق مقالته ، وهذا للتهكم من قائله ببيان شدة بخله .

## ١٨- التقديم للتدرج :

هذا التقديم غالباً ما يكون في المدح ومنه قول البحتري :[2]

يترقرقن كالسراب وقـد خُضـن ... غمـاراً مـن السـراب الجـاري

كالقسي المعطّفات بـل الأسـهم ... مبريـةً بـل الأوتـار

فقد تدرج في تشبيه نحولها ، فشبهها بالقسي ثم بالأسهم المبرية ثم بالأوتار وهي أشد الثلاثة نحولاً ..

## ١٩- التقديم لبيان الحال :

وهذا التقديم يكون غالباً للاستعطاف والترحم أو الشكوى ، ومن ذلك ما ذكره عروة بن الورد من حال امرأته ، حيث أشغله حاجتها التي جعلتها تبيت على المرافق مهمومة ، فبدأ بذكر حال نومها على المرافق ليكون أبلغ في التأثير ، قال عروة :

تبيتُ علـى المرافـقِ أمُّ وهـب ... وقد نامَ العيـونُ لهـا كتيـتُ[3]

كذا يبدو لنا أنه بدون معرفة الأسلوب العربي من حيث الإعراب والمعنى والبلاغة لن نستطيع أن نفهم القرآن الكريم ، وأنه على قدر التمكن من معرفة الأسلوب العربي يكون فهمنا له ، وكلما استطعنا أن نتعرف على وجوه الإعجاز في القرآن خاصة وسائر علومه عامة .

---

(١) ديوان أبى تمام ص ٥٣٦ .

(٢) ديوان البحترى ، الجزء الثانى ص ٤٤ من قصيدة يمدح بها أبا جعفر بن حميد ويستوهبه غلاماً.

(٣) ديوان عروة بن الورد ، ص ٤٩ .